

إستراتيجية بناء الملكة التواصلية لدى طلبة العربية

أ. عمر بوقمرة

مُفتِّح:

لم يعد خافيا على أحد ذلك التدني الذي وصل إليه مستوى خريجي أقسام اللغة العربية وأدائها، في الجامعات العربية في العقود الأخيرة، وهؤلاء هم حملة لواء العربية الفصحى ومعقد آمالها، وهم النخبة التي ستتحشم سد حاجيات الأمة في مجالات الحياة المختلفة، من تعليم، وصحافة، وتلفزيون، وغيرها. ونخشى إن استمرت الحال على ما هي عليه أن يتحول تراثنا الذي ضنّي به أسلافنا أربعة عشر قرنا من الزمان إلى طلاسَم وألغاز في أعينهم لا يستطيع فك رموزها إلا العالمون بالعربية؛ وها هي نذر الضعف قد أطلت برأسها، فلا يكاد يقدر أحد من الطلبة مهما تقدم في الشهادات الجامعية، ومهما غلا في كليته وجامعته التي ينتسب إليهما، وأساتيده الذين من معينهم نهل أن يقرأ لسيبويه، أو ابن جنّي، أو الجرجاني، وغيرهم من أئمة العربية وأعلامها الأول؛ الذين ظفروا بفضل السبق والتأسيس، فضلا أن يفهمه الفهم الصحيح والاستيعاب الحسن؛ وقد رأيت طلبة الماستر إذا طُلب من أحدهم الارتجال في البحوث التي يلقونها ولو لبضعة دقائق، قل من يستطيع فعل ذلك، حالهم كحال الإبل الراحلة لا تكاد تعثر على واحدة منها في المائة، وأستسمحكم إذا قلت: إن بعضهم إذا طُلب منهم مجرد القراءة لنص ما، لم يقيموا على الوجه الصحيح فضلا عما هو أعسر منها من الفهم والتحليل والنقد.

إن مظاهر ضعف اللغة العربية قد تبرجت في غالبية المؤسسات العربية، الحكومية منها وغير الحكومية، فمن النادر أن تعثر على متحدث بلسان عربي مبين، وعلى الرغم من أنها تغص بحملة شهادة الدكتوراه في شتى التخصصات، ناهيك عما هو دون ذلك من الشهادات. ومؤسسات التعليم الجامعي لا تخرج عن هذا السُمت إلا أن المسؤولية التي تقع على عاتقها كبيرة والتي تقع على كليات واللغة الأدب أكبر.

يا معشرَ القراءِ يا ملحَ البلدِ ما يصلحُ الملحُ إذا الملحُ فسدُ

ولست هنا في مقام جلد الذات، وكشف العورات. حاشا لله فأنا منكم، بل في مقام التوصيف والتشخيص، اللذين بدونهما لا يمكن للباحث أن يحطّ قلمه على موطن الداء الذي يبغي قطع دابره. فأنا وأنتم (الطلبة) نتاج بذور مناهج نهجت، وطرائقُ طرقَت، ورسوم ورسمت، ساءت طوايا أصحابها أم حسنت؟

العربية وأدائها في جامعاتنا. وهنا يشرع لنا طرح السؤالات التالية: ماهي الملكة التواصلية؟ وما المراد بمصطلح البناء؟ وكيف يمكن للحفظ أن يعرّز الملكة؟ وهل الحفظ وحده كاف لذلك؟ وما موقعه من مناهج التعليم في الجامعة الجزائرية خصوصا والجامعات العربية عموما؟ تلك جملة من الأسئلة سنحاول الإجابة عليها في هذه الورقة البحثية راجين من الله التوفيق

والمنهجية، على هذه التربية اللغوية الفاسدة. والمتأمل لهذه العوامل يجدها قسمين : قسما غير مقدور عليه - بالنسبة لنا كأساتذة وطلبة - ويحتاج إلى إرادة أمة برمتها وهو الأكثر، وقسما يقع تحت قدرة الفرد وإرادته وهو قليل العدد ولكنه كثير النفع بإذن الله، ومن هذا القليل وقع اختيارنا على الحفظ كأداة منهجية لها أثرها وفعالها في بناء الملكة التواصلية لدى طلبة اللغة

إن القضية التي نروم معالجتها والوقوف عليها؛ هي ذلك الضعف البادي على ألسنة طلبة اللغة العربية وأدائها في الوطن العربي عامة والجزائر خاصة. والحقيقة التي يجب الإقرار بها هنا هي: أن أسباب ضعف الألسنة وفساد الملكات كثيرة ومتداخلة لا يمكن معالجتها في مداخلة كهذه، فقد تضافرت العوامل السياسية، والنفسية، والاقتصادية، والاجتماعية،

والسداد، وهذا أو أن الشروع في ذلك.
- الملكة لغة: ورد في لسان العرب لابن منظور تحت مادة (م.ل.ك) ما يلي:
- الملك معروف: وهو يذكر ويؤنث كالسلطان.

- ابن سيده: الملك والمُلك والملك احتواء الشيء، والقدرة على الاستبداد به.
- وهذا ملك يميني ومُلكها ومُلكها أي: ما أمُلكه. قال الجوهري والفتح أفصح.

- وأعطاني من مُلكه ومُلكه، عن ثعلب، أي مم يقدر عليه.

- ابن السكيت: المُلْك ما ملك، يقال: هذا مُلك يميني، ومُلك يدي، وما لأحد في هذا مُلك غيري.

- وملكت العجين أمُلكه مُلكاً إذا شددت عجنه١.

إذن الملكة في معناها اللغوي تعني القدرة والتمكن من ذلك الفعل الذي أضيفت ونسبت إليه.

- الملكة اصطلاحاً: هي كيفية راسخة في النفس، أو استعداد نفسي خاص، يُمكن صاحبه من أداء ذلك الفعل بمهارة واقتدار فائقين. وقد عرفها الجرجاني صاحب التعريفات فقال: «إنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية، وتسمى حالة مادامت سريعة الزوال، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها وصارت بطيئة الزوال، فتصير ملكة، وبالقياس إلى ذلك الفعل عادة وخلقاً»٢.

- مفهوم الملكة اللغوية ومراتبها لدى ابن خلدون: «اعلم أن اللغات كلها

شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات، وإنما هو بالنظر إلى التراكم، فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع، وهذا هو معنى البلاغة. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال، لأن الفعل يقع أولاً وتعود منه للذات صفة، ثم يتكرر فيكون حالاً. ومعنى الحال أنه صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فيكون ملكة أي صفة راسخة»٣؛ وقد تعمدت نقل هذا النص كاملاً انتقاش جملة من النفاثس الكامنه فيه ومنها:

- أن اللغة ملكة شبيهة بالصناعات الحسية من حياكة، وخياطة، وبناء، وزخرفة، وغيرها. وأن الملكة اللغوية وغيرها من الملكات درجات ورتب، منها العالي، ومنها الداني، وبينهما درجات ودركات.

- أن جودة الملكة ورداءتها بالنظر إلى التراكم و النظم، وليس الألفاظ المفردة. وهذا ما قرره عبد القاهر الجرجاني(ت٥٧١هـ) من قبل «وهو أن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد»٤؛ فاللغة عند الجرجاني ليست قائمة

من المفردات، ولو كان الأمر كذلك لكان كل من يحفظ مفردات اللغة فصيحاً بليغاً، أي مالكا لخاصية اللغة، مقتدراً عليها، ولكن واقفنا اللغوي يكذب ذلك. فقد بدأنا نتعلم الفرنسية منذ السنة الرابعة ابتدائي إلى السنة التحضيرية من الماجستير أي أربع عشرة سنة من الطلب، وقد حفظنا كثيراً من الألفاظ الفرنسية بحيث لو طلب من أحدنا أن يسمي لنا الأشياء الكثيرة بها لما عجز عن ذلك، ولكن حين يطلب منه التعبير أو كتابة فقرة يخرس اللسان ويجف القلم؛ فالألفاظ عند الجرجاني لا تتفاضل من حيث دلالاتها على مدلولاتها، فليس هناك لفظة أدل على معناها من لفظة أخرى، ولنتأكد من صحة هذا الرأي ينبغي أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلام إخباراً، وأمرًا، ونهياً، واستخباراً، وتعجباً. وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة»٥، وبذلك يعيب الجرجاني على الذين يرون الفصاحة في اللفظ المفرد، وأنها تعزى إليه دون مراعاة لمكانه في التركيب. ودليل ذلك أنك ترى الكلمة نفسها تروقك في موضع، وتوحشك في موضع آخر، ولو كانت المزية في الكلمة نفسها لكانت إما تحسن أبداً، أو لا تحسن أبداً٦.

- أن الملكة تحصل بتكرار الفعل اللساني مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته،

للكلام العادي المبسط، مع التأكيد على احترام القواعد الأساسية، بمعنى أن الملكة الأساسية محتواة دائماً في الملكة البيانية، فبالإضافة إلى تجسيد القواعد الأساسية المشكلة للملكة الأساسية، ينتقل المتكلم إلى قواعد أخرى تحتكم إلى الأساليب البيانية الساحرة ٩.

الجرجاني أول من أدلج؛

لن أكون مبالغاً إذا قلت: إن عبد القاهر الجرجاني أول من جعل التركيب درجتين: درجة تقف بك عند حدود الصواب، ودرجة ترقى بك في فضائل حسن الخطاب، يقول: « فإذا قلت: أفليس هو كلاماً قد اطرّد على الصواب وسلم من العيب؟ أفما يكون في كثرة الصواب فضيلة؟ قيل: أما الصواب كما ترى فلا لأننا لسنا في ذكر تقويم اللسان، والتحرز من اللحن، وزين الإعراب، فنعتد بمثل هذا الصواب. وإنما نحن في أمور ندرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم، فليس درك صواب دركا فيما نحن فيه، حتى يشرف موضعه، ويصعب الوصول إليه، وكذلك لا يكون ترك خطأ تركاً حتى يحتاج في التحفظ منه إلى لطف نظر، وفضل رؤية، وقوة ذهن، وشدة تيقظ «١٠؛ وفي هذا المضمار يقول عبد الحميد أحمد يوسف هنداي: « والحقيقة أن عبد القاهر يفرق في كلامه بين نوعين من الصواب في الكلام والمعاني، الأول: ما يمكن أن نصلح على تسميته بالصواب النمطي أو الصواب النحوي، والثاني: هو ما

هي: «ملكة يقتد ربها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح»، وشرحها بقوله: «وقيل ملكة» حتى لا يكون المعبر عنها بلفظ فصيح فصيحاً، إلا إذا كانت الصفة التي يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه. وقيل: «يقتدر بها»، ولم يقل: «يعبر بها» ليشمل حالي النطق وعدمه، وقيل: «بلفظ فصيح» ليعم المفرد والمركب» ٨.

وهذا التركيب (النظم) الذي ترد إليه الملكة عند علمائنا قسماً:

١. القسم الأول: تركيب أساسي، وغرضه التبليغ والتواصل وبجمل سهلة، ويكون عند عامة الجماعة اللغوية كما يكون عند خاصتها.

٢. القسم الثاني: تركيب بياني، راق غرضه إجادة الكلام وتزيينه، ويكون عند خاصة الجماعة اللغوية دون عامتها.

فالتكوين الأساسي يُعنى بتركيب وبناء الألفاظ المفردة، للتعبير عن المعاني المرادة المباشرة، بعيداً عن الأساليب والانزياحات الأدبية. أما التركيب الراقى فهو أعقد وأعلى من الأول لأنه ينزع إلى سحر البيان. والنتيجة أن الملكة ملكتان هما:

١. الملكة الأساسية (الصوابية، التبليغية، التواصلية): وأطلقت عليها هذه الأوصاف لأن غرضها الأول هو التبليغ والتواصل؛ مع مراعاة الحد الأدنى من الصواب اللغوي.

٢. الملكة البيانية (البلاغية): يظهر فيها الجانب العالي من الكلام متجاوزاً

فحين يقع الفعل أول مرة يصير صفة للذات، ثم يتكرر فيصير حالاً للذات، ومعنى الحال أنه لم يترسخ بعد، ثم يتكرر الحال أكثر فيصير ملكة راسخة. والفرق الجوهرى بين الحال والملكة هو أن الحال صفة عارضة من شأنها أن تشارك المحل؛ أما الملكة فهي كيفية راسخة في المحل يتسر أو يتعذر زوالها بحسب شدة تمكنها من المحل وطول الهجر؛ وعلى الرغم من أن ابن خلدون لم يضع حدوداً فاصلة بين الملكة ومرآحها القبلية، أي لم يضع حدوداً للتكرار ودرجة تواتره من مرحلة لأخرى، فعمل مرد ذلك إلى صعوبة ضبط التكرار وحدوده كما تضبط حدود الأرض، إذ هو أمر نسبي في الأفراد بحسب قدراتهم، ونسبي في الأزمنة والأمكنة بحسب أحوالها وملابساتها. ولنا أن نمثل بحفظ القرآن الكريم الناجم عن التكرار، فما يحفظه فرد في يوم قد يمكث فيه آخر بضعة أيام، وما يحفظه في الصباح يختلف عما يحفظه في المساء وهذا أمر بادر لمن تأمله.

٣. الملكة ملكتان: إن تأكيد الجرجاني وابن خلدون وغيرهما على أن الملكة تكون في المركب لا المفرد، لا يعني ألبتة أن الأخير لا قيمة له في تعزيز الملكة وتطويرها، بل كل ما في الأمر أن الألفاظ محتواة في التركيب، وشرط لفصاحته، ولذلك اشترط علماء البلاغة المتأخرون في الملكة البلاغية فصاحة المفرد مع فصاحة المركب. قال القزويني عن فصاحة المتكلم

حقق ذلك الصواب وزاد عليه بحسن الصياغة، وهذا الثاني هو الجدير بأن يستدرك في نظر الجرجاني وفي نظر البلاغيين قاطبة كذلك «١١».

وليس معنى هذا أن المستوى الثاني يخرج عن قواعد النحو بل هو دائماً في إطار ما تسمح به اللغة، إما حقيقة أو مجازاً. « وهذاان المستويان من اللغة كلاهما واقع في إطار ما تسمح به اللغة، إما حقيقة أو مجازاً، فالمستوى الثاني البلاغي، وإن كان قائماً على قدر كبير من التوسع أو التسمح والأريحية في الاستعمال اللغوي، فإنه واقع كذلك في إطار ما تسمح به اللغة، بحيث لا تخرج إلى نوع ثالث من الاستعمال يعد مرفوضاً في العرف اللغوي بين أبناء اللغة الواحدة وذلك لأن ما يقع في المستوى البلاغي من العدول أو الخروج أو الانحراف، غالباً ما يكون عدولاً مقنناً مضبوطاً بقواعد لغوية تقنن هذا العدول»١٢. ثم عمد هندواي إلى مقارنة ما استوحاه من كلام عبد القاهر بما ذهب إليه العالم اللغوي الشهير «تودورف» فيقول: « ولعل هذا الذي استوحيناه من كلام عبد القاهر هو ما قصد إليه تودورف عالم اللغة الشهير، حيث يرى أن الاستعمال يكرس اللغة في ثلاثة أضرب من الممارسات: المستوى النحوي، والمستوى اللانحوي، والمستوى المرفوض، ويرى أن المستوى الثاني يمثل أريحية اللغة فيما يسع الإنسان أن يتصرف فيه »١٣.

ينبغي علينا أن نميز بين مرحلتين في تعليم اللغة العربية لطلبتنا وهما:
١. مرحلة يُكسب فيها المعلم المتعلم الملكة

اللغوية الأساسية، أي: القدرة على التعبير الصحيح، بعيداً عن كل أنواع التعبير الفني الذي يرتكز على الأساليب البيانية الراقية.

٢- مرحلة يُكسب فيها المعلم المتعلم القدرة على التعبير الفني البليغ الذي يتجاوز حدود السلامة اللغوية، ولا يجوز بيدagogia الانتقال إلى هذه المرحلة إلا بعد التمكن التام من الملكة اللغوية الأساسية لأنها تنبني عليها؛ ولذلك كان حرص الجرجاني حرصاً زائداً على ألا يُفصل بين النحو والبلاغة، « فالنحو من هذه الناحية هو صورة اللغة وبنيتها، أما البلاغة فهي استعمال اللغة واستثمار نظامها في الحياة اليومية »١٥.

- طريقا اكتساب الملكة :

لاكتساب الملكة طريقان أحدهما مفقود، والآخر موجود وهما:

١ الانغماس اللغوي: يرى عبد الرحمان الحاج صالح أن المهارة اللغوية لا تتطور ولا تنمو إلا في بيئتها الطبيعية، التي لا يسمع فيها إلا أصوات تلك اللغة المقصودة بالاكْتساب، ومن عزم تعلم لغة ما عليه أن يعيشها مدة معينة وأن يتغمس في بحر أصواتها، فلا يسمع غيرها ولا ينطق بغيرها»١٦، فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم، يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم

عن مقاصدهم، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولاً، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة، ومن كل متكلم، واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة، ويكون كأحدهم»١٧، وهكذا تنتقل اللغة من جيل إلى جيل بطريقة عفوية وسلسة لا يشوبها كدر اللحن ولوثة الضعف.

لقد وضع لنا ابن خلدون الشرط اللازم والصارم لمن أراغ اكتساب الملكة اللغوية، والمتمثل في «الانغماس»، وهو مصطلح مادي محسوس، استعاره علماء اللسانيات التطبيقية لإبراز الانغماس اللغوي المعنوي في شكل مادي محسوس. فإذا كان الانغماس لغة هو المقل في الماء والغط فيه؛ فإن الانغماس اللغوي هو أن ينغمس المتكلم في بيئة لغوية (بحر لغوي) سماعاً واستعمالاً (نطقاً)، من الصوت إلى الكلمة المفردة إلى التركيب، ولا يزال يتكرر السماع عليه، ويكرر هو النطق به، حتى يصير صفة راسخة ويكون كواحد منهم وإن لم يكن من جنسهم. وبقدر نقص الانغماس وضعفه في مهارتي السماع أو النطق، وفي أي من مستويات اللغة الثلاثة (الصوتي، الصريفي، التركيبي)، بقدر ما تكون الملكة الناتجة عن ذلك ضعيفة مخدوجة. ذلك هو الانغماس اللغوي الذي على قدره تكون الملكات. وقد ألقى «سكينر» على البيئة مسؤولية جعل الطفل يتعلم لغتها (البيئة)، وأفرادها

هذين الطريقتين إشارة منه إلى أن الأصل في الملكة أن تكتسب عن طريق البيئة والانغماس فيها، وهذا ما اصطلح عليه باللغة الأم، ولكن إذا فقدت تلك البيئة فليس أمامنا إلا الطريق الثاني، واللغة المكتسبة حينئذ ليست مكتسبة بالأومومة وهذا حالنا اليوم. وقد أحسن صنعا عبد السلام المسدي حين أقرَّ بأن العربية الفصحى بالنسبة إلى كل عربي في أيامنا هي لغة مكتسبة بالتعلم، وليست مكتسبة بالأومومة»^{٢٢}، كما أشار ابن خلدون إلى هذا بقوله: «وكذلك تحصل الملكة لمن بعد ذلك الجيل بحفظ كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك، بحيث تحصل الملكة ويصير كواحد نشأ في جيلهم ورباً بين أحيائهم»^{٢٣}.

إن حفظ العذب من سحر البيان يعزز الملكة اللغوية لدى المتعلمين، وتكون البداية مع كتاب الله إذ هو كتاب البلاغة الأكبر، وحصنها المتين، ونبعها المعين، الذي عجز الخلق عن مجاراته، يضاف إلى القرآن الكريم الحديث النبوي الشريف، على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، فهو أفصح من نطق بالضاد من العباد، ثم الشعر العربي من خلال المعلقات العشر، فهو ديوان علوم العرب وأخبارهم، وشاهد على بلاغتهم وفصاحتهم، وحتى كلام المولدين أيضاً. وهذا المنهج كانت تنتهجه المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة قناعة منها أن حفظ الكلام العربي شعره ونثره والإكثار منه تستحكم به ملكة من رام تعلم

العجمة واستحكمت فيه واستبدت به. ولذلك ترى اليوم من العجم إذا عاشر العرب وتكلم بلسانهم تجد ملكته فيها ممتحية الأثار، ثم إذا فرضنا أنه تيمم الممارسة والحفظ ليحصلها، جاءت ناقصة مخدوشة، والسبب في ذلك ما سبق إلى المكتسب من امتلاك ملكة منافية للملكة المقصودة بالطلب. لأن قبول الملكات وتحصيلها على الفطرة أسهل وأهون، وإذا تقدمت ملكة على أخرى نازعتها المحل ودافعتها عنه وأبت التزاحم وتلك سنة كونية (التدافع) ولله في خلقه شؤون^{٢١}.

٢ الحفظ والمران: هذان مصطلحان متلازمان متكاملان و لا ينبغي الفصل بينهما، وإلا غابت الثمرة المرجاة منهما، وهنا أود الإشارة إلى أن فصل ابن خلدون بين طريقي اكتساب الملكة لا يعني ألبتة أنهما لا يشتغلان معا وفق آلية منسجمة. فعندما نتحدث عن اكتساب الملكة عن طريق الانغماس اللغوي في البيئة المعينة، وأنه لا بد من الارتقاء بالصفة إلى الحال فالملكة عن طريق كثرة التكرار سماعا واستعمالا؛ فهذا يعني حتما أن كثرة الاستعمال (المران) المفضي إلى الحفظ هو عامل فاعل في تعزيز الملكات، فصار الحفظ والمران متصمّنين في الطريقة الأولى. إلا أن الحفظ هنا يكون عفويا، أما في الطريقة الثانية (الحفظ والمران) فيقصد الحفظ قصدا، ويُعمد إليه عمدا، و تقريق ابن خلدون بين

يقومون بدور التعزيز لتوفير العادات الكلامية^{١٨}؛ ينبغي أن تكون الظروف التي تجري فيها عملية التعلم أقرب إلى ظروف بيئة المتعلم ومحيطه، فالطفل أو المغترب الذي يتعلم في محيطه تكون ملكته أبقى وأرسخ لسببين هما:

١. أن الاكتساب يحدث بشكل عفوي، مغمورا بالسعي الحثيث لإرضاء النفس بتلبية الرغبات، واجتباب المنغصات، وهنا تؤدي الحوافز النفسية دورا فعالا في نيل الملكة.
٢. أن الاكتساب يقع على مرأى ومسمع من الأشياء المتوفرة في البيئة، المرتئية منها والمسموعة، ومن ثم تكون موضوعا لحديثه^{١٩}؛ ولاشك أن من يوظف حاستين في التعلم (السمع والبصر) يكون أكثر رسوخا، وليس الخبر كالمعاينة.

الملكات تتدافع ولا تزدهم: وهنا ملاحظة جوهريّة أشار إليها ابن خلدون ينبغي ألا تغفل في مثل هذا البحث، وهو أن الملكات تتدافع على المحل ولن تظفر به على التمام والغاية في الغالب إلا واحدة، «ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات، وأحسن استعدادا لحصولها، فإذا تلونت النفس بملكة أخرى خرجت على الفطرة، وضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل في هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف»^{٢٠}. فإذا ظفرت بالمحل ملكة العجمة، صار امتلاك ناصية العربية وإجادتها أمرا عسيرا، وإن حصل فضعيفا، لأن المحل قد تلون بصبغة

العربية ٢٤؛ «وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته وجنسه وكثرته من قلته، تكون جودة الملكة الحاصلة عند الحافظ... وعلى مقدار جودة المسموع أو المحفوظ، تكون جودة الاستعمال من بعده، ثم إجادة الملكة من بعدهما، فبارتقاء المحفوظ في طبقته من الكلام ترتقي الطبقة الحاصلة، لأن الطبع إنما ينسج على منوالها» ٢٥.

إذن على قدر جودة المحفوظ تكون جودة الاستعمال وعلى قدر رداءة المحفوظ تكون رداءة الاستعمال، وهذا دليل قاطع على ذلك التلازم بين ثنائية الحفظ والاستعمال الذي أكدناه آنفا، ولو أن حافظا أرق نفسه، وأنفق وقته في حفظ المتون شعرها ونثرها، لتحصيل الملكة دون دربة واستعمال، لكان ذلك عبثا من السعي، وبقوارا من العمل، فالحفظ والاستعمال كالروح والجسد، وهل رأيت جسدا يسعى بلا روح؟ فالملكة «إنما تحصل بممارسة كلام العرب وتكراره على السمع، والتفطن لخواص تراكيبه، وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية التي استنبطها أهل البيان. فإن هذه القوانين إنما تقيدها بذلك اللسان، ولا تقيده حصول الملكة بالفعل في محلها» ٢٦، وكذلك نقول في الحفظ وحده؛ إنه يفيد علما بالمحفوظ ولا يفيد حصول ممارسة ونسج على منوال ذلك المحفوظ، فالملكة لا تحصل إلا بالحفظ والاستعمال معا.

ولكم في أهل الأندلس قدوة يا أهل العربية؛ ولذلك نجد كثيرا من جهابذة النحاة والمهرة في صناعة

العربية والإلمام بقوانينها، لو طلب من أحدهم كتابة سطرين إلى ذوي مودة، أو شكوى ظلّامة، أو قصد من قُصوده، لجانب فيه الصواب، وأكثر من اللحن ولم يُجدِ الخطاب على أساليب الأعراب. ونجد كثيرا ممن يحسن هذه الملكة ويجيد فن القول منظومه ومنثورّه، وهو لا يعرف من قوانين العربية شيئا، فلا يحسن إعراب الفاعل من المفعول، ولا المرفوع من المجرور. فمن هنا نعلم أن قوانين العربية غير العربية (الصناعة غير الملكة). وقليل واتفاقي من يجمع بين الصناعة والملكة، وغالبا ما يقع ذلك لمخالطي كتاب سيبويه لأنه جمع فيه بين قوانين العربية وأمثال العرب وشواهدهم من الأشعار والأنتار، فكان فيه جزء لا بأس به من تعليم الملكة، فتجد العاكف عليه المحصل له قد أوتي حظا من كلام العرب واندرج في محفوظه ما يحتاج إليه؛ أما العاكفون على كتب المتأخرين الخالية من شواهد كلام العرب فتجدهم يظنون أنهم على شيء من لسان العرب وهم أبعد الخلق عنه ٢٧، وقد تظن ابن خلدون إلى الفرق الحاصل بين أهل الأندلس وبين أهل المغرب وأفريقية في تحصيل الملكة، مع ما بينهم من التقارب لحد التماهي، «فأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملكة وتعلمها من سواهم، لقيامهم فيها على شواهد العرب وأمثالهم، والتفقه في الكثير من التراكيب في مجالس

تعليمهم... أما من سواهم من أهل المغرب وأفريقية وغيرهم، فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثا، وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب إلا إن أعربوا شاهدا... فأصبحت صناعة العربية عندهم كأنها من جملة قوانين المنطق والجدل» ٢٨، وبهذا نعلم أن حصول ملكة اللسان العربي إنما تكون بكثرة الحفظ وكثرة المران، حتى ترتمس في الطبع مناويل راقية ينسج التراكيب عليها، فتخرج للسامع أبلغ ما تكون. الحفظ وأثره في تعبئة المعجم الذهني؛ ويقصد بالتعبئة شحن وملاً الرصيد اللغوي، فكما أن الإنسان إذا أراد أن يستعمل هاتقه المحمول في اتصال ما، عليه أن يعبئ رصيده بالوحدات الكافية لهذا الاتصال، وإلا انقطع الاتصال إن كان فيه بعض الوحدات، أو لا يقدر عليه أبدا لعدم وجود وحدات أصلا. فكذلك المتكلم فإنه يشحن رصيده اللغوي بطريقة لاشعورية إن كانت بيئته الطبيعية توفر له الانغماس اللغوي، وإن لم تتوفر هذه البيئة فالبديل هو الحفظ، وعلى قدر كثرته وجودته يكون المعجم جودة وكثرة، والمتكلم الذي يكون رصيده معجمه الذهني ضحلا من المفردات ستكون ممارسته اللغوية مخدوجة مبتورة، لأنه لا يجد ما يعبر به عن بعض الأشياء والأفكار، فيخرج كلامه مستهجننا نابيا، بل قد يخرج عن الجادة أصلا كأن يسمى الأسماء بغير مسمياتها. وقد سبق إلى

هذه البلاغة التي اختص بها القرآن في وصفها سائر البلاغات، وعن المعنى الذي يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة، قالوا: إنه لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام... وقد يخفى سببه عند البحث، ويظهر أثره في النفس حتى لا يلتبس على ذوي العلم والمعرفة به... وقد توجد لبعض الكلام عبثية في السمع، وهشاشة في النفس لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معا فصيحان، ثم لا يوقف شيء من ذلك على علة. قلت: وهذا لا يتقنع في مثل هذا العلم، ولا يشفي من داء الجهل به، وإنما هو إشكال أحيل على إبهام ٢٢، وقد استقر رأيه بعد إنكاره لهذا المسلك على أن السر البلاغي الذي تعذر عن البشر الإتيان بمثله، إنما كان لأمر» منها: أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية، التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اثتلافها، وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل على الأحسن من وجوهها إلى أن يأتوا بكلام مثله. وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة... وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق

اللغة أو متن اللغة يشير إلى الجانب البنوي الظاهري كالأصوات، والألفاظ، والكلمات، والصيغ، والأوزان، والتراكيب... وبالمقابل يشير إلى القواعد والضوابط التي تتحكم في بناء الكلم مفردا ومركبا، وتضبط علاقات الوحدات المعجمية والدلالية في سائر أنواع التراكيب الممكنة» ٢١؛ فحفظ جيد المنظوم والمنثور يمد الحافظ أثناء الكلام بوحدة معجمية ونحوية وتراكيب لغوية، بل ويمده أيضا بجملة من الأسيقة والأحوال والملابسات التي تكسبه ملكة مراعاة الأحوال بين المقال والمقال. كما تمده بشحنات تربوية هادفة قل أن نعثر عليها في غيره.

- الحفظ وفن الاختيار: وهنا أجد نفسي مضطرا لسوق مثال جيد لقيمة الحفظ ودوره في تعبئة المعجم الذهني الذي يعزز الملكة، والتي تعني البلاغة والفصاحة. ولا أظن أن أحدا قد جعله دليلا على مكانة الحفظ من قبل ولا فخر. سنقف في هذا المثال مع علم من أعلام القرن الرابع الهجري هو: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المتوفى سنة (٥٢٨٨هـ)، يعد من أبرز علماء أهل السنة، وقد مثلت أفكاره اللغوية (في رسالته بيان إعجاز القرآن) مرحلة عظيمة في قضية النظم القرآني والنظم بصفة عامة ٢٢، والذي نجزم به أن الخطابي قد تجاوز في شرحه التقليد والظن اللذين جرى عليهما سابقوه على الرغم من تسليمهم به. ولذلك «صاروا إذا سئلوا عن تحديد

أوهام الكثير من الباحثين أن النحو كضيل بعلاج العيِّ ووسيلة للتفصيح، شعارهم في ذلك تعريف ابن جني للنحو بأنه انتحاء سمت العرب في كلامها، وهذا كلام غير سليم بالمرّة. وغاية ما يفهم من قول ابن جني أننا نتكلم بتوجيه من قواعد النحو، هذا إن وجدنا المادة الخام من كلام العرب في معجمنا الذهني التي بها ننظم وفق قواعد النحو، وتلك هي المشكلة التي تفاقمت عنها ٢٩. ويمكن أن نمثل لهذا ببناء ماهر قد هيا كل شيء من أرضية صالحة للبناء، ومخطط رائع، وعمال أكفاء، لكنه لا يملك الآجر والإسمنت، هل يمكن له تطبيق ذلك المخطط في الواقع؟

إن متن اللغة السليم والكثير عنصر ضروري في تعزيز الملكة التواصلية، ولعل إهمال هذا الجانب من اللغة راجع إلى تلك الفكرة التي تؤكد أن اللغة ليست قائمة من المفردات، وإنما هي نظام وهذا صحيح، لكن ذلك لا يعني إهمال الألفاظ المفردة ألبتة، أو أنها لا دور لها، ثم إن امتلاك النظام لا يعني امتلاك الملكة التواصلية، وفرق بين الصناعة والملكة على ما مر معنا من ابن خلدون. وقد أكد هذه الفكرة عبد القاهر الجرجاني حين قال: «أن الألفاظ المفردة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد» ٣٠، فالفائدة تحصل بالضم الذي هو النظم وفق قواعده النحو ولكن ضم ونظم ماذا؟ الجواب: ضم ونظم الألفاظ: «إن مصطلح معجم

منه». فنظم الكلام يقوم على الإحاطة بجميع الألفاظ من أسماء، وأفعال، وحروف، وتراكيب، وكذلك الإحاطة بجميع معاني هذه الألفاظ، ومنها الفروق الدلالية بينها، وبجميع النظم، حتى لكأنها مجتمعة بين يدي المتكلم حاضرة في ذهنه لحظة الكلام فينتقي منها أحسن لفظ، لأحسن معنى، في أحسن نظم، في أحسن موضع، وهو مراعاة المقام. وعندما نقول الإحاطة حتى لكأنها حاضرة في الذهن فليس المراد هنا سوى الحفظ. وهو غير كاف وحده فلا بد من فن الاختيار وحسنه، « ولا يتأتى الاختيار إلا بعد معرفة وتمثل ثم موازنة واختيار»^{٤٠}؛ فالذي يحفظ كل الكلام المستعمل وهو ما يفوق اثني عشر مليون كلمة ويعرف معانيها وفروقاتها، ويعرف الفروق بين وجوه النظم، ومقاماتها بحسب أحوال المخاطبين لاشك أن ملكته تكون أرقى ممن هو دون ذلك.

- الدربة والمران: الدربة صنُّ الحفظ وردؤه، وبدونها يبقى الحفظ مجرد كلام نفسي حبيس الخواطر، ذلك أن الحافظ لا يزال لسانه رطبا باستعمال أساليب القرآن الكريم، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وأساليب المتقدمين من شعر ونثر، وأمثال وحكم ونوادر. ويكون ذلك في البداية تقليدا لهم، فإذا ترسخت تلك المناويل وصارت ملكة في اللسان، انطلق في النسيج على منوالها دون حاجة إلى تسميع نصوص القدماء. فمن يحفظ قوله تعالى: «؟ وفوق كل ذي علم

قال بعض العلماء^{٣٦} في الأسماء اللغوية وهي ركن واحد من أركان الكلام التي اشتراطها أنه لا يجوز أن يحيط بها كلها إلا نبي^{٣٧}، وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهو في ذروة السنام من الفصاحة، يقرأ قوله تعالى: «؟ وفاكهة وأبا؟»^{٣٨}، فلا يعرف الأب، فيراجع نفسه ويقول: «مالأب؟ ثم يقال معرضا: إن هذا تكلف منك يا بن الخطاب. وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو ترجمان القرآن ووارث علمه يقول: لا أعرف حنانا، ولا غسليين، ولا الرقي^{٣٩}، فهذا المثال ينضح بما فيه ولم يحتج إلى شرح لوضوح الشاهد فيه على القصد من إيراده، ولو أن كاتب هذا المقال قصر بحثه على هذا المثال لكان كافيا في إبراز كشف مرامه من البحث، ولكننا نطمح إلى أبعد من ذلك نطمح إلى ربط الحفظ بفن الاختيار بالبلاغة التي ليست سوى قمة الملكات وأعلاها، فكيف ذلك؟

لنعد ثانية إلى ما أورده الخطابي من أن السر البلاغي الذي تقطعت عليه أعناق الجياد السُّبُق، وتوانت عنه خطا الجياد القُرْح، التي لطالما صالت وجالت في سوق عكاظ هو عجزهم «عن الإحاطة بجميع الألفاظ، وجميع المعاني، وجميع النظم، حتى لكأنها مجتمعة كلها أمام أعينهم، حاضرة في أذهانهم، لحظة نظم الكلام. فيختارون منها أحسن لفظ لأحسن معنى في أحسن نظم، واضعين كل شيء في موضعه حتى لا يُرى موضع أولى به منه. وإذا كانت الألفاظ وهي نوع واحد من الأنواع الثلاثة يتعذر على الواحد من الناس الإحاطة بها وبفروقاتها الدلالية فيضع كل لفظ في موضعه الأنسب له وبه، بحيث إذا أبدل مكانه غيره لزم منه أحد أمرين: إما تغير المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه ذهاب البلاغة. وقد

في أنواع الكلام ، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد منه فلم توجد إلا في كلام العليم القدير؛ الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا»^{٤١}؛ إنه بحق أول مؤلف يتعرض لشرح فكرة الإعجاز بالنظم إضاحا للإعجاز من جهة البلاغة، الذي قال به جمهور العلماء من أهل النظر من قبله، واضعا مَشْرَطَ البحث على أركان النظم وهي: لفظ حامل، ومعنى عليه محمول، ورباط لهما ونظام. وكل كلام يقوم على هذه الأركان الثلاثة. والقرآن الكريم جاء بأصح المعاني، في أفصح الألفاظ، في أحسن نظم. «ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور والجمع بين شتاتها حتى تتنظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر فانقطع الخلق دونه»^{٤٢}؛ لأنهم عاجزون عن الإحاطة بجميع الألفاظ، وجميع المعاني، وجميع النظم، حتى لكأنها مجتمعة كلها أمام أعينهم، حاضرة في أذهانهم، لحظة نظم الكلام. فيختارون منها أحسن لفظ لأحسن معنى، في أحسن نظم، واضعين كل شيء في موضعه حتى لا يُرى موضع أولى به منه. وإذا كانت الألفاظ وهي نوع واحد من الأنواع الثلاثة يتعذر على الواحد من الناس الإحاطة بها وبفروقاتها الدلالية فيضع كل لفظ في موضعه الأنسب له وبه، بحيث إذا أبدل مكانه غيره لزم منه أحد أمرين: إما تغير المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه ذهاب البلاغة. وقد

فلا يعني هذا أن الطالب يترك على فطرته، بل هناك بيئة أخرى حلت محلها، وأكسبت الطالب ملكة أخرى، هي ملكة العامية المشوبة بالفرنسية والأمازيغية والدارجة، وهنا يزداد الأمر تعقيدا لأن المحل قد شغل بملكة أخرى على حد تعبير ابن خلدون، وتلون بصيغة تلك الملكة على حساب الملكة الثانية. هذا إذا سلمنا أن طلبتنا سلكوا الطريق الصحيح لامتلاكها من الحفظ والمران. ولكن الواقع كما وصفنا آنفا غير ذلك، فازدادت ملكتهم وهنا على وهن. بل لو سلمنا جدلا أن طلبتنا يسلكون الطريق الصحيح لامتلاك الملكة التواصلية عن طريق حفظ جيد المنظوم والمنثور، واستعماله أثناء الدرس وأطراف الحرم الجامعي، ولكنهم في الوقت نفسه ينغمسون لغويا في بيئة عامية وكانت الأخيرة أولى بالمحل وأمكن فيه، فكيف إذا كانت العامية هي المسيطرة في محيط الجامعة، بل تسلت إلى قاعات الدرس ومدرجات المحاضرات، مع غياب تام لأي مشروع تحفيظي تدريبي؟

وإذا كان العاكفون على كتب المتأخرين من مهرة النحاة، الذين لم يخالفوا كتب المتقدمين أمثال سيبويه وغيره، يظنون أنهم على شيء من الملكة وهم أبعد الناس عنها. وأهل المغرب وأفريقية (في زمن ابن خلدون وهو واحد منهم) الذين اشتهروا بحفظ المتن لم يمتلكوا ناصية الملكة، بسبب اهتمامهم بالقوانين وإهمالهم للشواهد إلا ما يستدلون به على القاعدة، بخلاف أهل الأندلس - فأصبحت صناعة

عن المفقود. ولكن الواقع يسير في الاتجاه المعكوس، فالحفظ صار سبباً عند طلبتنا، وحتى الأساتذة ليسوا براء من هذه التهمة، فكم سمعنا الطلبة يتبرمون من الحفظ قبيل الامتحانات! وكم سمعنا الأساتذة يهدثون من روعهم! وكأن الحفظ لم يعد نعمة من نعم الله على خلقه، ثم عن أي حفظ يتحدثون؟ إنه حفظ نتف من محاضرات الأساتذة لأيام معدودات، وهي أيام الامتحانات والتي لا تتجاوز في أحسن الأحوال عشرين يوماً، فإذا سلمنا أن محاضرات الأساتذة من جيد الكلام الذي يُحتذى به في نظم الكلام، فهل يرتقي هذا المحفوظ إلى درجة الحال الراسخة التي تصير ملكة في العضو الفاعل لها وهو اللسان؟ أم أنها لن تعدو مجرد صفة عابرة تمحى مع انقضاء الامتحانات؟ أظن أن السؤال لا يحتاج إلى جواب. ولعل أطرف (ومن الطرافة ما يبكي) قصة سمعتها حول هذا الموضوع هي محاولة تلك الأستاذة التي بادرت بإلزام طلبة السنة الأولى بحفظ قسط من القرآن في مقياس القرآن الكريم، فصارت حديث الألسن، ومثار سخرية عند الطلاب والأساتذة على حد سواء، فبعضهم يقول لسنا في كلية شريعة، وبعضهم لسنا في زاوية لتحفيظ القرآن، وبعضهم هذا خروج عن المقرّر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإذا قلنا بانعدام البيئة اللغوية الفصيحة التي تتيح الانغماس للطلاب،

عليم؟ ٤١، سينسج على منوالها: وفوق كل ذي فصاحة فصيح، وفوق كل ذي غنى غني، ومن يحفظ قوله تعالى:؟ فيما رحمة من الله لت له؟ ٤٢، سينطلق لسانه بقوله: فيما صبر منا تجاوزنا عنكم، فيما ظلم منكم عاقبناكم، وهلم سحبا.

علينا أن نجعل العربية منهج حياة نتداولها في أسرنا، ومع إخواننا، وفي جامعاتنا. إن سبب ضعف ملكاتنا أساتذة وطلبة أننا لم نجعل العربية واقعا معيشيا، بل قصرناها على قاعات الدرس، وهذا هو الداء الدوي الذي يجب علاجه. ويمكن أن نمثل للدرية وأثرها في ترسيخ المناويل التي ينسج عليها بتعلم أحكام التلاوة، ففي البداية يتعلم هذه الحكام مع الممارسة أمام المقرئ، ولكن لدقائق معدودة، وغير كافية، ولكن لا يزال يكرر ويصحح لنفسه من خلال مراجعة تلك القواعد حتى تصير سجية وملكة في لسانه، فيقرأ القرآن كاملا دونما حاجة إلى مراجعة أي من قواعد التلاوة، بل في كثير من الأحيان ينسى تلك القواعد وحدودها بالمرّة، فسبحان من يسر القرآن للذكر.

. عود على بدء: هناك طريقتان لاكتساب الملكة لا ثالث لهما وهما: الانغماس اللغوي في بيئة لغوية صالحة، والحفظ والمران. والطريق الأول في عصرنا مفقود، والثاني موجود، فكان لزاما على هيئة التدريس في الجامعة الجزائرية أن تراعي ذلك وتسعى إلى تفعيل الممكن الموجود، وعدم تضييع الوقت بحثا

العربية عندهم جملة من القواعد المنطقية الجافة، فكيف بجامعةتنا التي استغنت عن كتب المتأخرين، فضلا عن المتقدمين، وصارت تقتات على نتف من كتب المحدثين التي لاتسمن من عربية ولا تعني من ملكة؟

وحتى المقررات غير مبرأة من الوهن الذي ألمّ بالسنة طلبة العربية وأدائها، وهذا ليس كلاما استهلاكيا غرضه الانتقاص من هيئة التدريس، أو الوزارة الوصية، وسوف أستدل على ما أقول من خلال تأمل مقررات البلاغة العربية بعدّها أقرب المقاييس وأولاها بتعزيز الملكة التواصلية وتطويرها. فمنذ أن عرفنا البلاغة مازال أساتذتنا يكررون على مسامعنا أهدافها التالية:

- هدف ديني يتمثل في تذوق القرآن الكريم، والوقوف على أسراره البلاغية التي أعجزت الخلق عن المجازة.

- هدف نقدي بلاغي يتمثل في التمييز بين الجيد والرديء من كلام العرب نظمه ونثره .

- هدف أدبي غرضه التدريب على صناعة الكلام البليغ نظمه ونثره، وهو تعزيز الملكة التي نحن بصدد البحث فيها.٤٢

وقد درس طلبتنا البلاغة في الطور الثانوي، وفي الجامعة في السنة الأولى من نظام (ل . م . د) ، وفي السنة الثالثة للسانس، وفي السنة الأولى ماستر. ولم نحقق أي هدف من الأهداف المعلنة لتدريس البلاغة، ونحن في زمن التدريس بالكفاءةات.

يجب أن نحدد أهداف كل مرحلة

من مراحل التعليم، ثم نتحقق من نتائجها فإن كانت مرجوة تدرّجنا إلى هدف آخر وملكة أخرى وهكذا. أما إذا كانت النتائج مخيبة فلا بد من مراجعة الأمر وإعادة الكرة ، ولنضرب على ذلك مثلا فيما يتعلق بموضوع بحثنا.

فالملكة ملكتان: ملكة أساسية تمكن الطالب من التعبير السليم العفوي ، نركز في هذه المرحلة على الأساليب السهلة التي لا تشترط إلا السلامة اللغوية بعيدا عن التعبير الفني القائم على الصور البيانية. وفي مرحلة لاحقة تنتقل إلى التعبير البليغ ، أي الملكة البيانية التي تتجاوز السلامة اللغوية، ولا يتم ذلك إلا بعد تحصيل الملكة الأساسية. أما في واقع تعليمنا فكثيرا ما يجبر الطلبة على التعبير الفني وهم عاجزون عن التعبير السليم، بحجة أنهم انتقلوا من الثانوية إلى الجامعة، أو من للسانس إلى الماستر، ويجد الأستاذ نفسه ملزما بتطبيق البرنامج. وفي هذه الحال لابد من أن تخصص لهم دروس تكثيفية في بداية العام الدراسي غايتها إكساب الملكة الأساسية لمن لم يحصّلها.٤٤ولكن هذا غير موجود. وفي مقابل هذا نجد كثيرا من دروس البلاغة لازالت تكرر من الثانوية إلى الجامعة بجميع مراحلها في النظام الجديد (ل ، م . د) دون حاجة إليها، وهذا راجع لعدم التنسيق أثناء إعداد المقررات بين الأساتذة، والأدهى والأمر أن صارت مهمة فتح التخصصات وإعداد المقررات في هذا النظام تسند لأحد الأساتذة، مقابل دريهمات تصب في راتبهم؛

فهرعوا لفتح التخصصات دون أهداف مسطرة ولا غايات منتظرة، فكم سمعنا بتخصص أعدّ لبيل قبيل انعقاد اللجنة العلمية بسويغات، فهيعات هيهات! وقد وقفت على مقرر السداسي الأول من السنة الأولى(ل. م. د) فكان كالتالي:

١ علم البلاغة (مفهومه ونشأته وتطوره وفروعه) آراء أهل المشرق والمغرب.

٢ أثر الفرق الكلامية في تأصيل البلاغة (المجاز عند المعتزلة نموذجاً).

٣ الأسلوب الخبري وأضرابه.

٤ والأسلوب الإنشائي وأضرابه.

٥ التقديم والتأخير ، الفصل والوصل.

٦ الحقيقة والمجاز ، أنواع المجاز.

٧ التشبيه وأضرابه.

٨ الاستعارة. الكناية.

٩ المطابقة. المقابلة.

١٠ الجناس .

١١ السجع.

١٢ البلاغة والأسلوبية.

١٣ البلاغة والشعرية.

١٤ بلاغة الخطاب النثري.

ولو عرض هذا المقرر على أي أستاذ في البلاغة لجزم بأنه مقرر المستوى النهائي في الطور الثانوي. فلست أدري مالذاعي لتكرار موضوعات من مثل المطابقة، والمقابلة، والسجع، والجناس، مع العلم أن أنواع البديع تجاوزت المائة عند الكثير، ولو خصصنا لكل مرحلة جزءا منها لأتينا عليها جميعا وعمت الفائدة. وحتى الموضوعات الأخرى مكررة كلها ماعدا الثلاثة الأخيرة ، وقد دفعني الفضول للوقوف على مقرر أحد تخصصات للسانس التي درست

الأثار، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ م، ص٥٧.

٢ عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد السلام الشداوي، خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، الجزء الثالث، ص٢٥٠.

٤ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح: محمد عبده، ومحمد محمود التركيبي، الشنقيطي، تعليق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م، ص٤١٥-٤١٦.

٥ المرجع نفسه، ص٢٥-٣٦.

٦ ينظر: أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني، (في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ١٩٨٧م، ص١٣٦.

٧ محمد النهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تحقيق: علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، الجزء الثاني، ص١٦٤٢.

٨ أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧ م، الجزء الثالث، ص٣٠٢.

في البداية ولكنه هان عليهم فيما بعد وألفوه، والحمد لله، ولكننا نعتقد أن الوقت المخصص للممارسة الشفوية قصير ولا يفي بالغرض.

وبعد هذه التجربة عثرت على تجربة قريبة منها لسامح عبد الحميد في كتابه «كيف تكون فصيحاً» يقول فيها: «ادخل حجرتك، أغلق عليك الباب، حاول أن تتحدث خمس دقائق دون توقف بالفصحى كلاماً بيناً، تفصل فيه الحروف، وتضبط فيه المخارج، وبسرعة متوسطة، وتختار موضوعاً سهلاً، وليكن قصة رحلة لك، أو قصة زواجك، أعد هذا التدريب ثلاث مرات في اليوم، تحاول في كل مرة التقدم بأن تتبّه لأخطائك اللغوية، تنتقي ألفاظاً أكثر بلاغة، تختار موضوعات أصعب، كشرح نظرية معينة في التربية، وكأنها محاضرة مهمة»^{٤٦}، كما اقترح عبد الله العدنان مقررًا دراسياً بعنوان «محادثة باللغة العربية الفصحى» يلزم به طلبة جميع الكليات وجميع التخصصات^{٤٧}، وهذه تجارب يمكن أن تأخذ طريقها إلى التطبيق خاصة وأنها لا تتطلب وسائل كثيرة ولا مكلفة، مع العلم أن مخابرتنا التي تنفق عليها الأموال الطائلة معطلة، وهواتفنا التي يمكن أن تستغل في ذلك مقفلة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الهوامش:

١ ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، المجلد السادس - الميم - الياء، ص٤٢٦٧-٤٢٦٨.
٢ أحمد الزعيبي: المعجم الفلسفي، دار

فيها مقياس البلاغة سابقاً، وعلى مقرر أحد التخصصات في الماجستير، فكانت نتيجة المقارنه مذهلة ومؤسفة، إنه ما يفوق السبعين في المائة من المقررات مكرر، و ليس لأنه يحتاج التكرار، وإنما نتيجة العمل الفردي المتسرع. إن الهدف القريب من دراسة البلاغة هو تنمية الكفاية التواصلية المتمثل في الإلمام بأساليب التواصل، وكذا التمكن من التعبير عن فكرة واحدة بأكثر من أسلوب، مع التمكن من مطابقة المقال للمقام^{٤٥}، ولكن هذا غير محقق؛ هذا مثال سفناه ينطبق على بقية المقاييس، وعلى بقية كليات اللغة والأدب العربي، وعلى كل جامعاتنا للأسف.

أما الدربة والاستعمال فغائبان من مقرراتنا ومن الطريف أنه في أحد مشاريع للسانس اقترح مقياس التعبير الشفوي، وهذا عمل يستحق التثمين، ويخدم موضوع بحثنا، ولكن اختلف الأساتيد في المجلس البيداغوجي كيف يكون الامتحان فيه، شفوي أم كتابي؟ وخلصوا نجياً إلى أن الفصل بيد رئيس القسم، فسرعان ما تحطمت بادرة الأمل تلك وأجري الامتحان كتابياً. حاولنا في أحد مشاريع الماجستير أن نركز على الإلقاء الشفوي، وهو أن يلزم كل طالب بتلخيص موضوع بحثه وعرضه في حدود خمس دقائق بأسلوب سليم، وعلى زملائه تصيّد الأخطاء، ثم تصوّب من قبل الأستاذ والطلبة، ثم يقيم الطالب وتعطى له علامة يكون لها النصيب الأكبر من علامة الأعمال الموجهة، من باب التحفيز (عشرة من عشرين). وقد استصعب الطلبة ذلك

- ٩ ينظر: فتحة حداد: ابن خلدون وأراؤه اللغوية والتعليمية، دراسة تحليلية نقدية، منشورات مخير الممارسة اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ٢٠١١م، ص١٤٣.
- ١٠ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، مرجع سابق، ص٧٧.
- ١١ عبد الحميد أحمد يوسف هنداي: الإعجاز الصريح في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٧٢٧.
- ١٢ المرجع نفسه، ص٧٢.
- ١٣ عبد الحميد أحمد يوسف هنداي: الإعجاز الصريح في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، مرجع سابق، ص٧٤.
- ١٤ ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، مقال: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص٢٦٥.
- ٢٤ ينظر: أحمد بناني: دور المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة في تعزيز الملكة اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد الخاص بأعمال ملتقى الممارسات اللغوية: التعليمية والتعلمية ٧-٨-٩، ديسمبر ٢٠١٠م، ص٢٦-٢٧.
- ٢٥ ينظر: المرجع نفسه، ص٧٩.
- ١٦ عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص٢٥٠.
- ١٨ ينظر: ميشال زكريا: قضايا أسنوية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية، مع مقارنة تراثية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٩٩٣م، ص٧٨.
- ١٩ ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، مقال: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، مرجع سابق، ص٢٢٦-٢٢٥.
- ٢٠ ميشال زكريا: قضايا أسنوية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية، مرجع سابق، ص١٠٩.
- ٢١ ينظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص٢٦٨-٢٧٦.
- ٢٢ عبد السلام المسدي: العربية والإعراب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م، ص١٤٩.
- ٢٣ عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص٢٦٥.
- ٢٤ ينظر: أحمد بناني: دور المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة في تعزيز الملكة اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد الخاص بأعمال ملتقى الممارسات اللغوية: التعليمية والتعلمية ٧-٨-٩، ديسمبر ٢٠١٠م، ص٦٠.
- ٢٥ عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص٢٩٢.
- ٢٦ عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، مرجع سابق، الجزء الثالث، ص٢٦٢.
- ٢٨ المرجع نفسه، الجزء الثالث، ص٢٦٢.
- ٢٩ ينظر: ابن حويلى ميدني: شحن الرصيد المعجمي حلقة التعليم المفقودة، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، العدد الخاص بأعمال ملتقى الممارسات اللغوية: التعليمية والتعلمية ٧-٨-٩، ديسمبر ٢٠١٠م، ص١٩٤.
- ٣٠ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، مرجع سابق، ص٤١٥-٤١٦.
- ٣١ ابن حويلى ميدني: شحن الرصيد المعجمي حلقة التعليم المفقودة، مرجع سابق، ص١٩٦.
- ٣٢ ينظر: وليد محمد مراد: نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م، ص٢٧.
- ٣٣ المرجع نفسه، ص٢٤-٢٥.
- ٣٤ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني في الدراسات القرآنية والتقدم، حققها وعلق عليها: خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعرفة، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م، ص٢٦-٢٧.
- ٣٥ المرجع نفسه، ص٢٨.
- ٣٦ هو محمد بن إدريس الشافعي، والقول كاملا هو: «ولسان العرب أوسع

علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: جورج زيناني، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٧ أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٧م.

٨ فتيحة حداد: ابن خلدون وآراؤه اللغوية والتعليمية، دراسة تحليلية نقدية، منشورات مخير الممارسة اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، الجزائر، ٢٠١١م.

٩ عبد الحميد أحمد يوسف هنداوي: الإعجاز الصريفي في القرآن الكريم، دراسة نظرية تطبيقية، التوظيف البلاغي لصيغة الكلمة، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ٢٠٠٢م.

١٠ عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، مقال: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، موقف للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧م.

١١ صالح بلعيد: دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

١٢ ميشال زكريا: قضايا أسنوية تطبيقية، دراسات لغوية اجتماعية نفسية، مع مقارنة تراثية، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

١٣ عبد السلام المسدي: العربية والإعراب، دار الكتاب الجديدة

فصيحا، تقديم ياسر برهاني، دار الإيمان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م، ص١٧.

٤٧ ينظر: عبد الله العدنان: نظرية تعليم اللغة العربية بالفطرة والممارسة، تطبيقاتها وانتشارها، مخبر الممارسات اللغوية الجزائر، العدد الثالث، ٢٠١١م، ص١٨٦.

قائمة المصادر والمراجع:

١ ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مصر، المجاد السادس - الميم - الياء.

٢ أحمد الزعيبي: المعجم الفلسفي، دار الآثار، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٣ عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة، تحقيق وتقديم وتعليق: عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون، بيت الفنون والعلوم والآداب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

٤ عبد الفاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح: محمد عبده، ومحمد محمود التركي الشنقيطي، تعليق: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

٥ أحمد شامية: خصائص العربية والإعجاز القرآني، (في نظرية عبد القاهر الجرجاني اللغوية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ١٩٨٧م.

٦ محمد التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: رفيق العجم، تحقيق:

الأسنة مذهبا، وأكثرها أنفاطا، ولا تعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه.

٢٧ ينظر: محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق: محمد أحمد شاكر، مكتبة دار التراث القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م، ص١٢٨.

٢٨ سورة عبس، الآية ٣١.

٢٩ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد، مرجع سابق، ص٣٦.

٤٠ محمد بركات حمدي أبو علي: فن الاختيار والبلاغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م، ص٠٩.

٤١ سورة يوسف، الآية ٧٦.

٤٢ سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

٤٣ فتحي عبد القادر فريد: بحوث ومقالات في البلاغة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ص٨٢.

٤٤ ينظر: عبد الرحمان الحاج صالح: بحوث ودراسات في علوم اللسان، مقال: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، مرجع سابق، ص٢٢٥.

٤٥ ينظر: عمر أوكان: اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، ٢٠٠١م، ص١٤٨.

٤٦ سامح عبد الحميد: كيف تكون

- المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
- ١٤ أحمد بناني: دور المؤسسة التعليمية الجزائرية العتيقة في تعزيز الملكة اللغوية، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو، الجزائر، العدد الخاص بأعمال ملتقى الممارسات اللغوية : التعليمية والتعلمية ٨.٧ - ٩. ديسمبر ٢٠١٠م.
- ١٥ ابن حويلى ميدني: شحن الرصيد المعجمي حلقة التعليم المفقودة، مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو، الجزائر، العدد الخاص بأعمال ملتقى الممارسات اللغوية :التعليمية والتعلمية ٩.٨.٧ - ديسمبر ٢٠١٠م.
- ١٦ وليد محمد مراد : نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر دمشق، سورية، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.
- ١٧ ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد، حققها وعلق عليها: خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعرفة ، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م.
- ١٨ محمد بن إدريس الشافعي: الرسالة، تحقيق: محمد أحمد شاكر، مكتبة دار التراث القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.
- ١٩ محمد بركات حمدي أبو علي : فن الاختيار والبلاغة العربية ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان ، الأردن، الطبعة الأولى ١٩٩٦م .
- ٢٠ فتحي عبد القادر فريد: بحوث ومقالات في البلاغة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- ٢١ عمر أوكان: اللغة والخطاب، أفريقيا الشرق ، بيروت ، لبنان، ٢٠٠١م.
- ٢٢ سامح عبد الحميد: كيف تكون فصيحاً، تقديم ياسر برهاني، دار الإيمان ، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م .
- ٢٣ عبد الله العدنان: نظرية تعليم اللغة العربية بالفتوة والممارسة، تطبيقاتها وانتشارها، مخبر الممارسات اللغوية الجزائر، العدد الثالث، ٢٠١١م.